الرفق بالحيوان
في
شريعة الإسلام

أ. د. كريستين ستيلت
أستاذ مساعد القانون والتاريخ
جامعة نورث ويسترن ـ شيكاغو ـ أمريكا

نتقدم بالشكر لكل من

“Animal People

”

و “Marchig Animal Welfare Trust”

على مساهمتهما في إنجاز هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير علمي
عن كتاب: «الرفق بالحيوان في شريعة الإسلام»
لمؤلفته
أ.د. كريستين ستيلت

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله؛ الرحمة المهداة والنعمة المسداة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على هديهم إلى يوم الدين، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين.

فقد كتبت الأستاذة الدكتورة كريستين ستيلت كتابًا عنوانه «الرفق بالحيوان في شريعة الإسلام»، ومحتوى الموضوعات التي اشتمل عليها وهي كالتالي:

١- **المقدمة:** وقد استعرضت فيها بعض صور التعامل المسيء للحيوان في السلوك اليومي لمن بيدهم الولاية عليه، وأن ما في الكتاب يمثل دليلاً في هذا الطريق يبيِّن الأسلوب المناسب للتعامل مع الحيوان، كما أنه بمثابة المرشد في الأمور المتعلقة بالتعامل الأمثل مع الحيوانات في الحياة اليومية وكيفيته، ويمثل أيضًا تذكيرًا للناس بالقواعد السامية والقيم الإنسانية الراقية التي يدعو إليها الإسلام في التعامل مع الحيوان.

٢- **الإسلام دين الرحمة والعدل:** وفيه أظهرت أن معنى الرحمة التي جاء بها الإسلام يتسع ليشمل المخلوقات كافة، ومنها الحيوانات، وأوردت كثيرًا من الأدلة الشرعية المؤيدة لما أرادت أن تقوله.

٣- **التاريخ الإسلامي وقيمة الرفق بالحيوان:** وفيه أوضحت أحداث التاريخ الإسلامي، وما تركه من آثار تدل على أن المسلمين قد استوعبوا بفهم جيد ما دعا إليه الإسلام للرفق بالحيوان.

٤- **المسئولية الإنسانية عن الحيوانات:** وفيه بينت الأساس الشرعي للرفق بالحيوانات الذي لا يقتصر على مجرد كونها توصيات أخلاقية أو أدبية، لكنها أحكام شرعية لها قوة الإلزام الشرعي، وأن الإخلال بأحكامها يعدُّ خطأً موجبًا للمساءلة عنه، وأن تلك المسئولية موزعة على من يتولَّون أمر الحيوان، ابتداءً من مالكه وانتهاءً بالمسئولية الاجتماعية العامة عنه، والتي يمارسها الحاكم.

٥- **حيوانات العمل (الحمير والخيل والجمال):** وفيه شرحت ما نزل في تلك الحيوانات من الآثار الشرعية الدالة على وجوب الرفق بها وأهميته، وأن لها في الإسلام من العناية ما يرقى بها إلى اعتبارها أممًا أمثالنا، وأنها تقوم بمهمة كونية خُلقت من أجلها، وأنها تسبِّح بحمد ربها؛ ولذلك يجب التعامل معها ليس على أنها أشياء مهمَلة، بل كائنات لها حُرمة وقيمة في الحياة الإنسانية.

٦- **الكلب.. ضحية سوء فهم:** وفيه قدمت بيانًا طبيًّا لما قد يبدو من وجوه التعارض الموهوم في الأدلة التي تتحدث عن الكلب، وبينت أنها محدودة الدلالة بما لا يلحق الأذى الطائش به، أو يهمل تنظيف الآنية من لعابه على نحو جيد، أو اتخاذه بدون هدف، أو الأمر لا يتجاوز مجرد حبسه للفخر والزينة وحرمانه من نعمة الحرية والتجوال التي يحبها، أو لمهمة الحراسة أو الصيد التي يمكن أن يتعلم فنونها ويساعد البشر في ممارستها، وقد تعاملت مع تلك الأدلة بحذر شديد، وحرص

صادق على اكتشاف الحقيقة بحيادية وموضوعية، ودون افتئات على رأي، أو تحامل على فكر، حتى ولو كانت ترى ما يخالفه، ووصلت إلى بر الأمان فيما كتبته في هذا الموضوع الشائك وقدمت فيه فهمًا مقبولاً، ورأيًا سديدًا يُذكر لها فتُشكر عليه.

٧- **القطة.. الرفيق الدائم للإنسان:** وفيه أظهرت أن للقطة حالة خاصة في الشرع والتاريخ الإسلاميين، وأنها كانت تمثل ظاهرة يومية غير مقلقة ولا منفِّرة من جهة الطهارة وبقايا الطعام والشراب.

٨- **متى يحل قتل الحيوان؟** وفيه أوضحت الحدود الشرعية التي يجب أن يتقيد بها هذا المسلك، فلا يجوز إلا في الحالات التي يبدو فيها الضرر من وجود الحيوان واضحًا أو مؤكدًا، أو أن يصاب الحيوان في حادث يستحيل بعده بقاؤه سليمًا أو بدون ألم، وهنا يجوز قتله بوسيلة رحيمة بعد أخذ رأي المختصين في علوم البيطرة أو الصيدلة وأمثالهما من ذوي الخبرة الكبيرة في الحكم على حياة الحيوان، وذلك فيما عدا حالات ذبح الحيوان التي يجب أن تتم برفق يضمن عدم إيلامه، أو إيذائه؛ وذلك بإحداد الشفرة والامتناع عن ذبح حيوان أمامه، أو جره إلى الذبح جرًّا عنيفًا مؤذيًا، كما فسرت الأثر المروي عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حين عاقب من رآه يجر الشاة من إحدى أرجلها بعنف، وقال له: «سقها إلى الموت سوقًا جميلاً» تفسيرًا يفيد في قضية نقل الحيوانات لمسافات بعيدة، وأنه يجب أن يتم بأسلوب إنساني رقيق، وهذا ما يفيده ذلك الأثر الصحيح، وتؤكده السنة النبوية الشريفة في التعامل مع الحيوان برفق.

وقد صاغت المؤلفة كتابها بأسلوب سهل، ودعمت ما ذكرته متصلاً بالمبادئ التشريعية المتعلقة بالمعاملة الطيبة مع الحيوان بالأدلة الشرعية الصحيحة من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكانت أمينةً في تعاملها مع تلك الأدلة؛ حيث خرجتها تخريجًا صحيحًا، ووثقتها من كتب الصحاح توثيقًا أمينًا يدل على فهمها لموضوع الكتاب واستيعابها له، وإيمانها بالفكرة التي ألَّفته من أجلها؛ ولهذا جاء الكتاب متفقًا مع المبادئ الشرعية الصحيحة، وموافقًا لما قرره جمهور أهل العلم في المسائل التي تناولتها وأضفت عليه من روحها وطريقتها في التأليف ما يجعل مادته العلمية –رغم ما تتسم به من صعوبة الإلمام وتعذر الفهم– سلسلة يمكن فهمها من قطاع عريض إذا ما وقع الكتاب بين أيديهم.

وقد جمع الكتاب في طريقة تأليفه بين التخصص العميق والمعالجة المتسمة بطابع اليسر والوضوح، وليس فيه ما يمثل خروجًا على الشريعة الإسلامية أو مخالفةً لمبادئها.

ولهذه الأسباب، أرى أن كتاب «الرفق بالحيوان في شريعة الإسلام» لمؤلفته الأستاذة الدكتورة كريستين ستيلت جيد في مادته العلمية، ومستقيم في مناحيه الشرعية، ومفيد في الموضوع الذي كُتب فيه؛ ولهذا أنصح بنشره حتى تعم الفائدة به، وأسأل الله لمؤلفته التوفيق والسداد، هذا وبالله التوفيق.

تحريرًا في ٢٠٠٨/٨/١٩ م

١٤٢٩/٨/١٨هـ

أ. د. عبدالله مبروك النجار

أستاذ بكلية الشريعة والقانون

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة

• **مقدمـــــة:**

حماية الحيوان في التشريعات الإسلامية

كثيرًا ما بهرت أثناء دراستي للشريعة الإسلامية بالقواعد الخاصة بمعاملة الحيوانات، والتي توجب معاملتها معاملة حسنة ورحيمة. وقد اتسع نطاق تلك التشريعات لتشمل أحكامًا لحماية الحيوانات التي تعمل مثل أحصنة الجر والحمير، كذلك المتطلبات الخاصة بالذبح والتي تفرض استخدام الطرق الرحيمة، وأوامر خاصة بأن تعامل الكلاب والقطط برحمة في كل الحالات. إن واقع الرفق بالحيوان في التشريعات الإسلامية لهو أفضل مثال يعبر عن الشفقة والاهتمام بالمخلوقات التي تعتمد على المخلوقات الأعلى الأخرى للعناية بها. ويمكن القول إنه إذا طبقت تلك التشريعات عالميًّا فهي تمثل حقًّا نموذجًا لكلّ شخص؛ لأنها قواعد تقدم الوقاية، وتقلل من حجم معاناة الحيوان بشكل جذري.

ومع ما تشكله هذه التشريعات من حماية قوية بشكل لا يصدّق للحيوانات ، فإن الواقع الحالي من الإهمال والقسوة على الحيوان يمثل صدمة لي. قد أصبح من الأمور العادية أن يرى فتيان يركضون عقب

كلاب صغيرة أو قطة ضعيفة ويرمونها بالحجارة، أو يربطون الجراء ويجرونها بالحبال من أعناقها، بل هم يمكن أن يتمادوا في هذا التعذيب إلى أن يقتل الحيوان. ومن الأمور العادية أيضًا مشهد الحمير (أو البغال أو الأحصنة) النحيلة والهزيلة تجر العربات الثقيلة عبر شوارع القاهرة، وقد ألهب السائق ظهورها بالسياط حتى تنزف وتتقرح.

إن أنت سألت الأطفال الذين يعذبون الكلب لم يفعلون ذلك، أحيانًا يجيبون أن الإسلام يتطلب هذه القسوة على الكلاب. وبالمثل، يعتقد سائق العربة لأنه يمتلك الحمار (أو البغل أو الحصان)، أن ذلك يعطيه الحق في أن يفعل ما يريد فيما يملك. هو لا يعنيه أن يعاني الحمار، أويسقط من الوزن أو الحمل أو حتى أن يموت.

أنا أخشى أن كثيرًا من المسلمين قد نسوا كيف فرض عليهم أن يعاملوا الحيوانات. أنا قد لاحظت، مثلاً، أن لا أحد سيحاول أن يعظ السائق أن يخفف من التحميل أو أن يتوقف عن ضرب الحمار؛ لأن الناس قد اعتادوا هذا النوع من السلوك. لذلك فإن تفادي القسوة على الحيوان أمر بسيط، وإن عدم تدخل الناس لوقف تلك القسوة لهو من الأمور المحزنة. وعندما يزور أجانب القاهرة ويرون هذه الأعمال، هم يفكرون –لسوء الحظ– أن هذه القسوة على الحيوانات مسموح بها، بل الأسوأ أن البعض يعتقد أن الإسلام يسمح بها.

ولقد كتبت هذا الكتيب لسببين: الأول: أنني أريد أن أظهر إلى أي مدى يقوم التشريع الإسلامي بحماية الحيوان. فعلى الرغم من الاهتمام بالإسلام وتشريعاته طوال الأعوام الماضية عالميًّا، فقد كانت هذه المنطقة

مفقودة في نقاشات كثيرة حول ما تكفله التشريعات الإسلامية من حماية حقيقية لحقوق الحيوان. إن التشريعات الإسلامية الخاصة بحقوق الحيوان والتي أرسيت في القرن السابع الميلادي تقدم حماية أكثر مما تكفله تشريعات الدول الأكثر تقدمًا في العالم الآن. الثاني: من خلال هذا الكتيب أستحث المسلمين على التمسك بالقواعد الرائعة للدين الإسلامي الخاصة بالرفق بالحيوان. أنا أرجوأن نقوم جميعًا بتوفير عالم أكثر رفقًا ومكانًا أكثر أمنًا للحيوانات. يحتاج مجال الرفق وحماية الحيوانات بشدة إلى الأمثلة الإيجابية والقيادات البناءة، وأنا أدعو كل المسلمين إلى أن يكونوا هذا المثل وهذه القيادة اعتمادًا على التشريعات الإسلامية الرائدة في هذا المجال.

• الإسلام دين الرحمة والعدل:

من أسس الإسلام الشديدة الأهمية: الرحمة والعدل والرفق والشفقة والعطف والإحسان، وهذه المبادئ نراها بوضوح في نصوص الدين، في القرآن والسنة، وفي أمثلة عديدة وردت في التاريخ الإسلامي، في مختلف عصوره.

والنبي ﷺ قال: «إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرْق (الخُرْق عكس الرفق)، وإذا أحب الله عبدًا أعطاه الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حُرموا محبة الله تعالى». [رواه الطبراني – برواة ثقات عن جرير بن عبد الله].

وفي نصيحة له ﷺ ترويها السيدة عائشة يقول: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه» [صحيح مسلم ٤٦٩٧].

وقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه عطوفًا شفوقًا مع كل الناس، ومع كل المخلوقات صغيرة كانت أو كبيرة.. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرَّة (= طائرًا صغيرًا كالعصفور) معها فرخان، فأخذنا فرخيْها، فجاءت الحُمرة فجعلت تُفرِّش (= ترفرف بجناحيها وتقترب من الأرض) فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها، رُدُّوا ولدها إليها» [سنن أبي داود ٢٣٠٠، ٤٥٨٤].

فأنت ترى في هذا الحديث كيف أن الاهتمام بطائر صغير كهذا لم يكن غائبًا عن اهتمامات النبي ﷺ، كما يتضح أن أي إنسان قد يغفل عما يجب في شأن معاملة المخلوقات الأخرى بسهولة، ودون قصد،

ومن غير انتباه منه؛ فهؤلاء ليسوا أي أحد، بل صحابة النبي ﷺ وكانوا يسافرون معه، وعندما تبيَّن لهم أهمية أن ترقَّ قلوبهم لطائر صغير، ولأمٍّ فجعها أن تفقد صغيريْها، انتبهوا للأمر ورقوا لمعاناتها.

إن القسوة، عمومًا، منبوذة ومدانة بشدة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.. والقسوة ضد الحيوان، خصوصًا، مدانة ولها عقاب، تمامًا مثل القسوة ضد البشر؛ فالله مطلع على أفعال العباد، الخير سيجزي عنه، والشر سيعاقب عليه.. قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة ٧، ٨).

ومعظم كتب الصحيح الكبرى تتضمن ذلك الحديث المهم الذي يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «لعن النبي ﷺ من مثَّل بالحيوان». [البخاري ٥٠٩١ النسائي ٤٣٦٦ مسند أحمد / ٢٩٦٧٤٧٧٦ / ٥٥٣٩ سنن الدارمي ١٨٩١].

ويقول ابن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» في شرحه للحديث: «إن اللعن من دلائل التحريم».. ويشير إلى رواية أخرى للحديث هي: «من مثَّل بذي روح ثم لم يتب مثَّل الله به يوم القيامة» [مجلد ٢٠ صفحة ٥٦، حديث ٥٥١٥].

والأحاديث الثلاثة التالية تجعل تلك المبادئ العامة واضحة تمام الوضوح:

يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هـرَّة (= قطة) حبستهـا فلـم تطعمهـا ولم تدعهـا [= تتركها] تأكل من خَشاش الأرض» [البخاري ٣٠٧١].

ويرى الإمام النووي أن الحديث يشير إلى تحريم ما فعلته المرأة، وأن سبب دخولها النار كان سوء معاملتها للقطة.. يقول النووي: «في

الحديث دليل لتحريم قتل الهرة وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب، وأما دخولها النار بسببها فظاهر الحديث أنها كانت مسلمة، وإنما دخلت النار بسبب الهرَّة» [شرح النووي مجلد٨ صفحة٥٠١].

والإنسان الذي يعامل الحيوان بغير ما يستحق من الرحمة الواجبة لها، تدين شريعة الإسلام فعله، وسيحاسبه الله عز وجل على ذلك، والعكس: فالرفق بالحيوان يجلب الخير للإنسان العطوف الرفيق.

وهناك قصة مشهورة رواها النبي ﷺ عن رجل سقى كلباً عطشان فغفر الله له سيئاته: «بينا رجل بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها، فشرب، ثم خرج: فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (= التراب المبلل) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماءً، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، فقالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر». [البخاري ٢٢٨٦. وروايات أخرى في البخاري ١٦٨ ٢١٩٠].

وربما يبدو أعجب من هذا ما رواه البخاري في صحيحه [الحديث رقم ٣٢٠٨] من قصة امرأة بغيّ (= فاجرة، زانية) عطفت على كلب ظمآن فسقته ماءً من بئر؛ فأنقذته من الموت بفعلها، فكان نتيجة ذلك الفعل أن غفر الله لها ذنوبها؛ لأنها أنقذت حياة الكلب.

• التاريخ الإسلامي وقيمة الرفق بالحيوان:

يبين التاريخ الإسلامي أن الرفق بالحيوان قيمة إسلامية رفيعة فلم يكن الأوربيون هم أول من اهتموا برعاية الحيوانات وتأسيس الملاجئ ودور الرعاية لها، بل كان المسلمون أول من فعل هذا.

وقد كان النبي ﷺ أول من دعا للرفق بالحيوان والعطف عليه، وأن يمده الناس بالطعام والماء اللازميْن له وأن يحسنوا إليه؛ لأنهم مسئولون عن حسن رعايته. وحتى في حال الحاجة إلى الرعاية الطبية فذلك مطلوب بحكم المسئولية عنه، وهو أمر يدعو إليه الإسلام؛ لأن الرحمة بكل المخلوقات التي تحت مسئوليتنا جزء أساسي من شريعة الإسلام وثقافته وتاريخه.

وفي مصر الإسلامية، في العصور الوسطى، كانت القاهرة مدينة مزدهرة عمرانيًّا واقتصاديًّا وسكانيًّا، وكانت الفنادق والمدارس والمساجد والقصور العامرة تملأ أنحاءها وجوانبها، وبجوار تلك المباني تجد دائمًا الأماكن المجهزة لرعاية الحيوانات: من الإسطبلات والمراحات، وأحواض الماء اللازمة لسقايتها، وكذلك على بدايات طرق السفر التي ترتادها القوافل التجاريــة، أو تلك التي تربط بين المدن وبعضها البعض.

وقد بنى المسلمون في مصر أحواضًا لسقاية الحيوانات ملاصقةً للمساجد والمدارس، وخصصوا لها الأوقاف الخيرية لتنهض بعبء تقديم الرعاية لتلك الحيوانات وتزويدها بما تحتاجه من الماء.. ولم يفرقوا في ذلك بين الحيوانات المملوكة بغرض المنفعــة أو الأليفــة أو الضالة.

وقد كانت هذه الأحواض تبنى من الحجر أو الرخام، وتخصص باعتبارها سبلاً خيرية لسقي الناس ودوابهم وسائر الحيوانات.

ويذكر المؤرخون نماذج كثيرة لتلك الأحواض من مختلف العصور الإسلامية الوسيطة، خاصــة العصــر الفاطمــي، والعصــر الأيوبــي، والعصر المملوكي، والعصر العثماني.

فمن عصر الدولة الفاطمية، ذُكرت أحواض عديدة بقرافة مصر الكبرى لشرب الدواب، منها: حوض قصر القرافة الذي بنته السيدة ست الملك ابنة المعز لدين الله الفاطمي سنة٩٧٦م، وأحواض أخرى كثيرة ملحقة بجواسق القرافة رأى المؤرخ تقي الدين المقريزي بعضها قبل أن تتخرب، ثم حوض الدواب بظهر الجامع الأقمر بشارع المعز، والذي جدده الأمير يلبغا السالمي سنة ١٣٩٦.

وفي العصر الأيوبي يُذكَر الحوض الذي وقفه الأمير ابن هنّس أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأنشأ بأعلاه مسجدًا مرتفعًا وساقية ماء على البئر.

أما العصر المملوكي فيذكر المؤرخون الكثير من الأحواض التي بنيت فيه لتخصص أوقافًا لسقاية الحيوانات، منها: حوض مدرسة أم السلطان الأشرف شعبان بشارع التبانة بالقاهرة، وحوض مدرسة الأمير أيتمش البجاسي، أحد المماليك اليلبغاوية، تحت قلعة الجبل برأس التبانة خارج باب الوزير، وحوض سقاية الدواب أسفل ساقية مدرسة السلطان حسن بالقلعة بالقاهرة، وحوض السلطان قايتباي الذي وقفه مع بئر الماء بوكالته في الباطنية بالأزهر؛ لتشرب منه الدواب من أول النهار لآخره يوميًّا، وكذلك الحوض الملحق بمدرسته في منشية ناصر بالقرافة، ثم حوض ملحق بمدرسة أخرى لقايتباي في قلعة الكبش بالسيدة زينب، وهناك أيضًا حوض مدرسة الأمير قجماس الإسحاقي بالدرب الأحمر، وكذلك حوض مدرسة إزبك اليوسفي بالسيدة زينب.

ومن العصر العثماني هناك ثلاثة أحواض باقية، هي: حوض الأمير إبراهيم أغا مستحفظان بباب الوزير، وحوض الأمير عبدالرحمن كتخدا

بالحطابة، والحوض الملحق بمسجد الأمير محمد بك أبوالدهب بالأزهر.

ولم يقتصر تخصيص الأوقاف على أحواض شرب الحيوانات فحسب بل إن المؤرخين يذكرون كيف أن هناك من الأمراء والسلاطين والمشايخ من خصص مالاً ليصبح وقفًا على رعاية الحيوانات الضالة كالقطط والكلاب بتقديم الطعام والشراب لها في أماكن خاصة لهذا الأمر.

فمما يرويه المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين في كتابه الشهير «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» [صفحة ٣٢٠] أن كبير كُتَّاب قاضي مصر في ذلك الوقت حوالي سنة ١٨٣٥م أخبره أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس خصص وقفًا للقطط، وكان هذا الوقف حديقة تسمى «غيط القطة» بجانب مسجده شمالي القاهرة، ولما لم يقم الأمناء عليها بواجبهم وباعوها وأصبحت لا تنتج جُعلت حكرًا يؤجره القاضي وينفق إيجارها في إطعام القطط، وبحكم أن القاضي حارس على الأوقاف الخيرية، وأنه يتحمل إهمال سابقيه، فقد صار من التقاليد أن القطط الشريدة في القاهرة تجتمع كل يوم عصرًا في الساحة الكبرى أمام المحكمة؛ لتأكل طعامها من سقط الذبائح على نفقة القاضي.

أما الأمير العثماني عبدالرحمن كتخدا الذي يرجع الفضل إليه في تأسيس الكثير من المساجد المشهورة والجوامع والشواهد والأسبلة والدور والقصور وأحواض سقي الحيوانات والعديد من المباني الجميلة التي تعطي القاهرة القديمة ملامحها الأثرية الرائعة، فتذكر كتب التاريخ أنه أسس بمصر وقفًا خيريًّا كبيرًا؛ لتوزيع الطعام على القطط والكلاب الضالة، وبلغ مقدار ما ينفق فيه سنويًّا ما يزيد على الـ٦ آلاف ونصف من الفضة بكثير. [انظر وثيقة وقف كتخدا برقم ٩٤٠ أوقاف صفحة ٦٦ إلى ٧٣].

كما أن الشيخ محمد أبو الأنوار السادات أحد زعماء ثورتي القاهرة الأولى والثانية ضد الاستعمار الفرنسي، ونقيب الأشراف بعد الشيخ عمر مكرم خصص وقفًا [برقم١٣٠٢ج أوقاف] للإنفاق على الكلاب خارج زاويته بالمقطم يبلغ مقداره ١٠٨٠٠ نصف فضة سنويًّا، وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الزمن.

ويؤكد المستشرق جوستاف لوبون عندما زار القاهرة قديمًا أن رفق المسلمين بالحيوان في الشرق عظيم، حتى أن بعضهم خصص وقفًا للإنفاق منه على علاج الحيوانات المريضة.. كما يذكر أنه علم عن مسجد بالقاهرة تأتيه القطط في ساعات محددة يوميًّا؛ لتتناول طعامها من وقف مخصص لذلك الغرض منذ زمن طويل.

وبهذا يتبين لنا كيف كان المسلمون سبَّاقين في هذا المجال؛ بفهمهم لروح الدين السمحة، ونصوصه الكثيرة التي تحضُّ على قيمة الرحمة والرفق بالحيوان الأعجم، وحسن رعاية كل ما تقع علينا مسئولية رعايته من الحيوانات.

• المسئولية الإنسانية عن الحيوان:

إذا تولى إنسان مسئوليةً عن حيوان ما، سواء أكان حمارًا أم حصانًا أم جملاً أم كلبًا أم قطة أم غيرها من الحيوانات، فيجب عليه أن يحسِن استخدام هذه المسئولية والرعاية وأن يهتم بهذا الحيوان، ونحن نسمع ونرى قصصًا رهيبة عن أناس مثلاً عندهم قطة، ولهم بسبب هذا ولاية وسيطرة عليها، فهم يرعونها في بيتهم ويقدمون لها حاجتها من الطعام والشراب.. ثم يحدث بعد ذلك -ولبعض الأسباب- أن يرموها في الشارع ظانين أنها تستطيع أن تبقى على قيد الحياة بطريقتها الخاصة

وهذا خطأ، كما يبين الحديث السابق ذكره عن المرأة التي دخلت النار في قطة حبستها بغير طعام أو ماء فماتت.

والمبدأ الأساسي الأحق بالتطبيق في هذا الحديث السابق يذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ [النساء ٣٦].

وكثيرٌ من المفسرين البارزين قالوا: «إن ما ملكت أيمانكم تتضمن الحيوانات التي تمتلكونها»، فالسعدي مثلاً قال: «إن ملك يمينك قد يشمل الحيوانات والناس»، ثم ينص السعدي صراحة على ما يجب على الناس تجاه حيواناتهم، وهو «القيام بكفايتها وعدم تحميلها ما يشق عليها».

وربما يقول بعض الناس: إن الله قد أعطى للناس ولاية وسيطرة على الأرض ليفعلوا فيها ما يشاءون، ولكن هذا الكلام ربما يتضمن إهمال الحيوانات والاستخفاف بها، أو الإضرار بالبيئة، ويستشهد أنصار تلك الفكرة بالآية ٢٩ من [سورة البقرة] ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.. وهم يزعمون أن هذه الآية تعطي للبشر الحق في أن يفعلوا في الأرض ما يشاءون من خلال مخاطبة الآية للناس ﴿**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾.

وهذا الجدال حول السلطان الإنساني الكامل المتحلل من القيود تصور خاطئ؛ لأسباب عديدة: فتفاسير هذه الآية توضح أن البشر عليهم مسئوليات لرعاية الأرض وكل ما عليها، بما في ذلك الحيوانات.

وتفسير الجلالين –مثلاً– يوضح أن قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ معناه أن تلك الأشياء خُلقت لكم أيها الناس؛ لتنتفعوا وتعتبروا.. ويضيف السعدي أن (لكم) في الآية «للانتفاع والاستمتاع والاعتبار»، وهذان التفسيران يعنيان أن البشر يستفيدون من الحيوانات بشرط أن يحترموا احتياجاتها ويرعوها حق رعايتها، واضعين في الاعتبار معاملتها برحمة ورفق.. وهذه المعاني بعضها مرتبط ببعض، فمثلاً إذا كان رجل يملك حمارًا، وهذا الحمار يجر عربة في الشارع، للنقل أو لبيع البضائع، فما هي أنسب الظروف الممكنة التي تجعل هذا الرجل قادرًا على استخدام هذا الحمار بالشكل الأفضل؟

بالتأكيد ليس هذا ممكنًا إن كانت حمولة العربة شديدة الثقل عليه، وكذلك في حالة ما إذا مرض الحمار، وأيضًا إن لم يجد طعامه على الوجه الأمثل.. لكن الحمار سيؤدي عمله على أفضل وجه إذا كان مالكه يزوده بالطعام والماء الكافييْن ويهتم بصحته ويتأكد دائمًا من أن ما يحمله ليس شديد الثقل أو فوق طاقته.

وأحيانًا يرتكب بعض الناس خطأً شنيعًا حين يظنون أنهم يستطيعون أن يشحنوا العربة بأكثر من حمولتها ويضربوا الحمار بقسوة حتى يجرها؛ وهذا علاوة على أنه خطأ يؤدي إلى أسوأ النتائج، مثله مثل التحميل الزائد لسيارة نصف نقل مع محاولة قيادتها بأقصى سرعة؛ فربما يكون هذا ممكنًا لبعض الوقت ولكن ليس لكل الوقت؛ حيث إن محرك السيارة سيتعطل ويتوقف عن العمل، وهنا سيحتاج الأمر إلى إصلاحه بتكلفة أعلى بكثير مما لو كان قد تم نقل الحمولة على مرتين؛ فكان الأفضل، والأكثر ربحًا، أن تنقل السيارة حمولة مناسبة، بدلاً من

التسبب في تدمير محركها بقلة الصبر واستعجال المكسب.. ونفس الأمر ينطبق على الحيوان.

وهذه ليست فقط النتيجة الوحيدة الصحيحة من فهم الآية السابقة؛ فهذا أمر منطقي ويؤيده الحديث والقواعد المرعية المطبقة عبر التاريخ الإسلامي، وستتم مناقشتها عند حديثنا عن «الخيل والحمير والجمال».

وعمومًا، فإن الله جعل الناس خلفاءه في الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ**﴾ [فاطر ٣٩]. فمن المفترض أننا نحمي مخلوقات الله والكون الذي أنشأه لنا وطلب منا أن نحيا فيه ونعمره، ونتعامل مع نعمه -سبحانه- وخلقه بنفس الفهم والإحساس بالمسئولية الذي كان النبي ﷺ وصحابته وخلفاؤه يتعاملون بهما مع المخلوقات والكون ويتحملون مسئولياتهم تجاه كل شيء طبقًا لشرع الله.

إن ما فعله البشر ويفعلونه في الأرض أحدث تأثيرات بالغة الصعوبة على الحياة فيها بصفة عامة، وعلى الحيوانات بوجه خاص.

والحيوانات التي نراها في شوارع أحياء وضواحي المدن لا يمكن أن نعتبرها مثل الحيوانات التي تعيش عالمها الخاص بحرية وعلى طريقتها الخاصة في الطبيعة؛ فهي تحتاج بالتأكيد قدرًا من تحمُّل المسئولية الإنسانية تجاهها.

والمصريون في العصور الوسطى كانوا على وعي تام بالمسئولية التي يجب على البشر أن يتحملوها تجاه الحيوانات؛ ففي ذلك الوقت -كما ذكرنا سابقًا- كانت القاهرة مدينة مزدهرة، وكان للحيوانات

فيها نصيب وافر من الاهتمام والرعاية؛ حيث أسس المسلمون أحواضًا لسقيها، بجانب المدارس والمساجد، ووهبوا لها الهبات وخصصوا لها الأوقاف التي تقوم على رعايتها، وتوفر لها كل ما تحتاجه.

واليوم.. ماذا تعني المسئولية الإنسانية عن الرفق بالحيوان بصفة «خلافة الإنسان لله في الأرض» التي يحملها كل بني آدم، عندما نتحدث عن الرفق بالحيوان وسائر مخلوقات الله الضعيفة في كونه الواسع، ورعاية تلك المخلوقات والحفاظ عليها وعلى توازنها؟ وماذا يحدث إن كان هناك شخص ببساطة لا يحب الحيوانات؟!

نقول: إن كل شخص ليس في حاجة لأن يأخذ قطة ضالة من الشارع ليرعاها في بيته، وليس مفروضًا عليه أن يُطعم الحمير الهزيلة التي ليس له مسئولية عنها، أو مثل ذلك .

وبالتأكيد فإن كل أعمال الخير لها ثوابها عند الله، لكنك غير مجبر على أن تفعلها كافةً، إلا المفروض منها بالطبع، لكننا على قدر الاستطاعة والتيسير من المستحسن أن نتعاون مع هؤلاء الأفراد –أو الجمعيات– الذين يحاولون، من خلال الأساليب والأشكال القانونية، القيام عن الجميع بأمر رعاية الحيوانات والرفق بها والعطف عليها؛ وذلك لحل مشكلاتها التي تعتبر معاملتها بقسوة أسوأها، خاصةً مع زيادة أعداد تلك الحيوانات المسكينة التي لا تجد من يُطعمها أو يهتم بها.

إن الجمعيات الخيرية المعنية بالرفق بالحيوان في مصر تعمل على وقف هذه الإساءة، وعلى إيجاد حلول شرعية لتلك المشكلة، وتستحق تلك الجمعيات منا كل التقدير والدعم.. وأن نهتم بنشر روح الرفق والرحمة لكل الكائنات التي خلقها الله تعالى.. وقد حدد لنا الإسلام

بمنهجه السامي وشريعته السمحة الطرق التي ترضي الله في التعامل مع تلك المخلوقات التي هي أمم أمثالنا.

أما هـؤلاء النـاس الذيـن لا يحبـون الحيوانـات، أو رعايتهـــا، أو قد لا تسمح ظروفهم بذلك، فعليهم على الأقل أن يفعلوا ما يجب عليهم من منطلق خلافتهم لله في أرضه، وذلك بأن يتأكدوا أن هناك مؤسسة ما -أو شخصًا ما- تقوم بالنيابة عن الجميع بمسئولية الرعاية والعناية بالحيوان بالطرق السليمة.

وعند ذلك أيضًا عليهم أن يتعاونوا، كل منهم على قدر استطاعته، وبما يتيسر له، مع الأشخاص أو المؤسسات المعنية بالأمر، وألا يتركوا الخوف أو الكراهية يدفعانهم إلى القسوة مع الحيوانات، وألا يمنعوا أحدًا من مساعدتها.

• حيوانات العمل.. الحمير والخيل والجمال:

تؤدي الحمير والخيل والجمال خدمات مهمة للإنسان، وفي مقابل ذلك لابد أن يعاملها هو برحمة ورفق، وأن يقدر العمل الذي تؤديه له، وأن يحترم خدماتها له.

وهناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة تعلمنا كيف نترفق بالحيوان؛ فقد روى سهل بن الحنظلية قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «**اتقوا اللـه في هذه البهائم المعجمـة، فاركبوهـا صالحـة وكلوهـا صالحـة**» [سنن أبي داود ٢١٨٥].. ومعنى (لحق ظهره ببطنه) أنه صار شديد النَّحافة بسبب شدة الجوع وقلة الطعام

وعدم الرعاية، كما أن معنى البهائم يشمل كل ذوات القوائم الأربع – كما يفسر ذلك شارحو الحديث.

ويبين حديث آخر كيف أن النبي ﷺ غضب وتأثر بشدة بسبب إهمال الحيوانات وعدم رعايتها حق الرعاية بالشكل الذي يتفق والشرع، ويرضي الله، فيروي عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ دخل حائطًا [=حديقة] لرجل من الأنصار [لقضاء حاجته] فإذا جمل.. فلمَّا رأى الجمل النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه [= بكى بالدموع] فأتاه النبي ﷺ فمَسح ذِفْراه [=مكان يعرق عند التعب من قفا البعير عند أذنيْه] فسَكت [أيْ:هَدَأ الجمل وتوقف بكاؤه واطمأن]، فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل». فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنَّك تُجيعُه وتُدْئِبُه [= تجعله يجوع ويعمل كثيرًا حتى يتعب]» [سنن أبي داود ٢١٨٦ مسند أحمد ١٦٦٢/١٦٥٤ كما رواه ابن شاهين في الدلائل، وقال البغوي في «المصابيح»: إنه حديث صحيح، وذكره القسطلاني في «المواهب»].

وتنطبق هذه القواعد للرفق والرحمة في معاملة الحيوان على كل إنسان منَّا، دون فرق بين غني أو فقير، مشهور أو مغمور، فالواجب على الجميع هو تقوى الله في خلقه، وحسن شكره على نعمه، واتِّباع شرعه في التعامل معها.

ويروي شريح بن هانئ رضي الله عنه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قال: ركبت عائشة بعيرًا، وكان منه صعوبة: فجعلت ترده، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليكِ بالرفق فإنه لا يك في شيء إلا زانه (= زيَّنه

وجعله حسنًا) ولاينزع من شيء إلا شانه (= عابه وجعله قبيحًا)». [رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ٢٤٢١٧ وروى مثله الإمام مسلم في صحيحه برقم ٤٦٩٨].

وهناك الكثير من الأحاديث التي توضح لنا كيفية التعامل مع حيوانات الركوب التي تحملنا أو تحمل بضائعنا وأمتعتنا، فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويرضى به ويعين عليه ما لا يعين على العنف، فإذا ركبتم هذه الدواب العُجْم فأنزلوها منازلها (= عاملوها بما يجب لحالها دون تقصير أو مبالغة)، فإن كانت الأرض جدْبة (= جافة بلا زرع) فانْجوا عليها بِنقْيِها (= أسرعوا بها إبقاءً على قُوَّتها)، وعليكم بسير الليل فإن الأرض تُطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار (= يمكن قطعها بالليل أسرع وأسهل) وإياكم والتَّعريس (= المبيت) على الطريق: فإنها طرق الدَّواب ومأوَى الحيَّات» [موطأ الإمام مالك ١٥٥١] .

وتشير مسئوليات ولاية الحسبة التي يتولى المحتسب بمقتضاها رسميًّا المسئولية القانونية عن تنفيذ الأمر بالمعروف إن ظهر تركه والنهي عن المنكر إن ظهر فعله في الأماكن العامة، خاصةً في الأسواق، تشير بوضوح إلى أن تحميل الحيوانات فوق طاقتها أو سوء معاملة المستخدمة منها في الركوب والنقل يعتبر انتهاكًا للقانون ومخالفًا للشرع الإسلامي يستوجب العقاب من المحتسب.

وكتاب «نهاية الرُّتبة في طلب الحِسْبة» الذي ألَّفه الشَّيْزري عن العهد الأيوبي، وكذلك كتاب «معالم القربة في أحكام الحسبة» الذي كتبه ابن الأخوة عن العهد المملوكي، وكتاب لابن بسَّام أيضًا بعنوان «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، كل هذه الكتب توجه المحتسب إلى أن يتأكد من

حسن معاملة الحيوانات المستخدمة في النقل أو الركوب، وعلى أن من يفعل غير ذلك يخالف الشرع، ويجب معاقبته.

فالشيزري يُعلِم المحتسب بمسئولياته قائلاً: «إن عليه أن يأمر جلابي الحطب والتبن، ونحوهم، إذا وقفوا بها في العِراص أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدواب؛ لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرَّتها، وكان في ذلك تعذيب لها».

ويكتب ابن الأخوة وسط العهد المملوكي في مصر موجهًا المحتسب لأن «يأمر حاملي الحطب والبلاط والكبريت واللفت والبطيخ، إذا وقفوا في العِراص، أن يضعوها عن ظهور الدواب؛ لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرَّتها، وكان ذلك تعذيبًا لها»، والنص واضح في تشابهه مع السابق في المعنى والكلمات.

أما ابن بسام فإنه يكتب في موجزه قريبًا من نهاية العصر المملوكي لافتًا الانتباه إلى حال الحيوانات المستخدمة في الأسواق، ويوجه المحتسب إلى أن يتنبَّه لهؤلاء الأشخاص المسئولين عن إحضار البضائع للسوق على ظهور الحيوانات؛ فهؤلاء الناس ينبغي عليهم أن يعطوا حيواناتهم كل ما يجب لها من الحقوق «أي أن تكون أحمالها وأوساقها على قدر طاقتها واستطاعتها، وألَّا يُخاف عليها من حيف (= ظلم أو جور) يضرُّ بها، ولا يسوقوها حثيثًا (= بسرعة) تحت الأحمال، ولا يضربوها بقسوة، ولا يوقفوها في العِراص (= ساحات الراحة أو الانتظار) وهي بأحمالها، وأن يراقبوا الله تعالى في علفها، وتكون موفرة بحيث يحصل لها الشبع، ومن خالف ذلك أُدِّب».

• الكلــب.. ضحيــة ســوء فهــم:

كثير من التصرفات المؤذية، فيما يتعلق بالكلاب، تتصل بصور من سوء الفهم التي استقرت عند كثير من الناس، فيما يظنونه يرتبط بالشرع الإسلامي، ونتيجة لذلك فإنه من الشائع أن نجد عند كثير من الناس أفكارًا غير صحيحة تقودهم إلى تصرفات تتناقض مع رأي الشريعة الإسلامية السمحة في هذا الأمر.

جانب من تلك المشكلة يتصل بأن القواعد المتعلقة بالكلاب فيها خلافات كثيرة ومعقدة بين المذاهب الفقهية، وهو أمر مرتبط بعدة وجوه لمعاملة الكلاب.

وللأسف الشديد، نجد أن كثيرًا من الناس غالبًا ما يتمسكون بفكرة سمعوها من غيرهم دون أن يتأكدوا من صحتها شرعًا.. رغم أنه أمر مهم جدًّا لنا جميعًا أن نعرف تعاليم الإسلام ونلتزم بها بمجرد علمنا.. وإحدى القواعد الأولية تدعو للرفق، واجتناب القسوة والعنف والأذى لأيٍّ من المخلوقات الأخرى، كما أن أحد المبادئ المهمة في الشريعة الإسلامية: «لا ضرر ولا ضِرار».

• ذكـر الكلب في القرآن الكريــم:

ورد ذكر الكلب بالقرآن الكريم في ثلاث مناسبات، إحداها تتصل فقط بأنه يلهث كثيرًا [الأعراف ١٧٦].. وهذه الإشارة وصفية فقط، ولا تقدم أي حكم سلبًا أو إيجابًا عن لهاثه، لكنها تشير إليه باعتباره من صفات الكلب التي خُلق بها.

والمناسبة الثانية كانت في قصة أهل الكهف، وهذا ورد في سورة [الكهف ١٨]، قال تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾.

ويتحدث القرآن عن أهل الكهف بشكل فيه تكريم لهم، هؤلاء الشباب الذين روي أنهم كانوا نصارى، وعاشوا في عهد ملك روماني اضطهد المسيحيين، وقد هربوا منه بسبب ذلك، واختبأوا في الكهف مع كلبهم.. ولأنهم مؤمنون وأهل كتاب؛ فقد وضعوا ثقتهم في الله، وفي أنه عز وجل قادر على حمايتهم من بطش ذلك الملك الجبار، ودعوا الله أن يقيهم شره فاستجاب لهم وحماهم برحمته؛ فجعلهم يغطُّون في سُبات عميق لأجل لا يعلمه إلا هو، حتى زال عنهم الخطر.

والآية ٢٢ من سورة الكهف تذكر الجدل الذي دار حول عددهم مع كلبهم، ويأتي ذكر الكلب ثلاث مرات في هذه الآية وحدها.

ولقصة أهل الكهف أهمية عظيمة في فهم مكانة الكلب في التصور الإسلامي؛ ففي هذه السورة يأتي الذكر الوحيد للكلب في القرآن الكريم بدور جوهري، فأنت تلاحظ أولاً أن القرآن عندما يصف أحوال أهل الكهف وما يفعلونه فيه، تجده يصف الكلب بفعل أشياء مثلهم؛ فهو يبسط ذراعيه (الرِجليْن الأماميتين) في وضع مريح هادئ يناسب السُّبات العميق، وتلاحظ ثانيًا أن القرآن الكريم لم يصفه باعتباره مجرد كلب حراسة، ولكن باعتباره أحد النائمين؛ فردًا من المجموعة، يعدُّ معهم

ويفعل مثلهم، وإن لم يكن الكلب كائنًا له اعتباره ومحسوبًا ضمن مجموع النائمين فلم يكن ليوصف أو يعدَّ على هذا النحو.

ومقول الآية (١٨): ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ ليس متصلًا بالكلب بوصفه مخيفًا مرعبًا لأنه كلب، لكن الوجه الظاهر في فهم هذه الآية أنها بوضوح عن المجموعة (هم)، والذين كانوا بالفعل نائمين، بينما يبدو عليهم أنهم متيقظون.

ولم يكن الكلب هو المخيف بل المشهد بالكامل، وكان الكلب في تلك القصة رفيقًا وصاحبًا للنائمين وليس للحراسة فقط، فلو كان كلبًا للحراسة فقط لما كان دخل في عداد هؤلاء النائمين، بل إن كلب الحراسة كان لابد أن يكون متيقظًا، مراقبًا، حارسًا لهؤلاء الشباب النائمين في الكهف.

وهناك استنتاج آخر يمكن أن نأخذه من قصة أهل الكهف ألا وهو أن الآيات لم تذكر أي تعليق سلبي عن حضور الكلب معهم، وهم أهل كتاب موحِّدون، كانوا مشمولين برعاية الله وحفظه لهم ولعقيدتهم التوحيدية في الكهف، بل إن الآيات على الأصح تصور الكلب باعتباره شيئًا مهمًّا ومُرحَّبًا به في المشهد.. وإن كان حضوره يعتبر مشكلة، أو مرفوضًا -شرعًا- مع هؤلاء الناس الذين اختارهم الله ليحميهم ويحمي عقيدتهم التوحيدية فكان سيتم استبعاده بأية طريقة، أو تحذيرهم من وجوده معهم، أما المرة الثالثة التي ورد فيها ذكر الكلب في القرآن الكريم فتتمثل في الآية الرابعة من سورة المائدة، وهي آية مهمة تتعلق بأحكام الصيد باستخدام الكلاب وحيوانات الصيد الأخرى التي يحتاجها الإنسان ليصيد بها طعامًا له: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ**

الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة ٤].

والسؤال الذي تجيب عنه الآية هو: هل يحل للمسلمين أن يصطادوا بكلابهم المدربة على الصيد؟ وهل ما تصطاده تلك الكلاب مما يحل أن يؤكل؟ توضح الآية أن الحيوانات المدربة على الصيد إنما تصيد ما تصيده تحت تصرف المسلم الذي يقودها، وهو عندما يرسلها وراء الفريسة فإنه يذكر اسم الله مع إرساله لها.. وهكذا، فإن ما تمسكه يعتبر من الذبح الحلال؛ لأن اسم الله عز وجل قد ذُكر قبل إرسال وسيلة صيده أو قتله فحلَّ بذلك ذبحه وأكله.

وقد قال الإمام القرطبي إن تلك الآية نزلت في شأن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل، وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ «زيد الخير»، فقد سألا الرسول ﷺ عن حكم الصيد بالكلاب والصقور المدربة، فقالا إن الكلاب تأخذ البقر والحمر والغزلان فمنه ما نراه أثناء صيده، ومنه ما تقتله فلا نشهده ولا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية ردًّا على سؤالهما.

والواضح من كل التفاسير المتعلقة بتلك الآية أنها لم تنشغل بموضوع لُعاب الكلب ونجاسته، وما قد يترتب عليه في أمر طهارة الصيد، فالأمر في تلك الآية مرتبط بكل ما يتعلق بالصيد من حلال وحرام، لا بنجاسة لُعاب الكلب وضرورة أنه سيصيب به الفريسة التي سيصطادها.. وخلاصة ذلك الأمر، أن ما يصطاده الكلب يحل بشروط، بغض النظر عن إمساكه للصيد بفمه أو أن لعابه يصيب صيده وهو غير طاهر.

• ذكـر الكلـب في الحديـث الشريـف:

كما هي الحال مع الشرع الإسلامي، في العموم، فإن معظم الأحكام مأخوذة من السنة النبوية الشريفة؛ فالقرآن الكريم لا يمدُّنا بكل التفاصيل المطلوبة لكي يطبِّق الإنسان شرع الله ويعيش بمنهجه.

وتشمل الأحاديث المتعلقة بالكلاب نطاقًا واسعًا من الموضوعات، ولكنَّ دراسة هذه الأحاديث كافةً وتفاسير شارحيها واحدًا تلو الآخر توضح جليًّا أن الكلب مخلوق كباقي مخلوقات الله، ويستحق معاملة مناسبة تلائمه.

قليل من الناس من يعلمون اليوم أن الكلاب كانت تروح وتجيء في المسجد، بل تبول فيه، على عهد النبي ﷺ فلا يتعرض لها أحد، وكانوا لا يرشون الماء على بولها في المسجد! فحمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا يروي عن أبيه أن «الكلاب كانت تبول وتقبل وتدبر في المسجد في زمان رسول الله ﷺ فلم يكونوا يرشُّون شيئًا من ذلك» [البخاري١٦٨..وفتح الباري مجلد٢ صفحة٦٠، حديث١٧٤].

وفي شرحه للحديث، يذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري أن المساجد على عهد رسول الله كانت مفتحة لا تغلق؛ فلا أبواب لها.. وكان بعض الصحابة يبيتون فيها، ثم بعد ذلك ورد الأمر بصيانتها وتطهيرها والنهي عن اللغو فيها، وجُعِلت الأبواب عليها.

وهذا التعامل مع بول الكلاب في المساجد، في زمن رسول الله ﷺ، يختلف عما حدث في حال أن رجلاً أعرابيًّا بال في المسجد.. يروي أنس ابن مالك «أن النبي ﷺ رأى أعرابيًّا يبول في المسجد، فقال: «دعوه»، حتى إذا فرغ، دعا بماء فصبه عليه» [فتح الباري ج٢ ص ١١٣، حديث ٢١٩].

• شرب الكلب من أوعية الطعام:

كثير من الناس يقولون إن هناك مشكلة تتصل بالكلاب، وذلك لما علموه من قول النبي ﷺ في شأن الكلب إذا شرب من وعاء طعام يخصُّ أي أحد فإنه يجب عليه أن يغسل الوعاء عدة مرات تختلف الروايات في بيان عددها، لكننا سنستعرض معًا الآن بقراءة فاحصة أشهر تلك الروايات:

عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا» [البخاري ١٦٧].

فأولاً، لابد أن نعلم أن هناك رواية أخرى للحديث تتضمن عددًا مختلفًا من المرات المطلوبة للغسيل، ومعنى هذا أن الأرقام استُخدِمت للتأكيد فقط، مثل أن تقول: «اغسل الإناء بعناية شديدة».

والأهم من ذلك أن بعض الناس غالبًا ما يستخدمون هذا الحديث للإشارة إلى أن الكلاب «سيئة» بشكل عام، ودائمًا.. لكنَّ مثل هذا المعنى الذي يقصده هؤلاء الناس ليس له وجود في الحديث.

فما المعنى إذن؟ إنه ببساطة: «إذا شرب كلب من وعاء طعام أحدكم فعليه حينئذ أن يغسله جيدًا وبعناية شديدة»، وهذا المعنى الواضح لا يتضمن أنه إذا شرب الكلب من الوعاء المخصص لاستخدامه هو فإنكم تحتاجون أن تغسلوه دائمًا وطوال الوقت بعد كل مرة يلعق فيها الكلب الماء من وعائه!

فالحديث ينص بوضوح على (إناء أحدكم)؛ أي الذي يستخدمه أحدكم، وليس مخصصًا لكلب الصيد أو الحراسة مثلاً .

وهكذا يتبين أنه معنى يشبه التوجيه أو النصح العام؛ احتفظ بأوعية الاستخدام الآدمي بعيدةً عن الكلاب، ومنفصلةً عما سواها، ولن تواجه عندئذ مشكلة كهذه.

وهذا المعنى يؤكده ويعزِّزه من الأحاديث التي ذكرناها سابقًا، هذا الحديث الذي يشير إلى الرجل الذي استخدم حذاءه ليسقي الكلب الذي يلهث من شدة العطش.. فالحديث يمتدح هذا الفعل من الرجل ويذكر أن الله غفر له خطاياه؛ نتيجةً لرحمته بالكلب، وتزويده بما يحتاجه من الماء ليُروي عطشه ويُبقي على حياته. ولم ينص الحديث على أن الرجل عليه أن يغسل حذاءه سبع مرات.. بالتأكيد لا؛ لأن الرجل لن يستخدم حذاءه ليشرب به، بل سيلبسه في قدميْه!

وحديث شرب الكلب من الوعاء أيضًا يتضمن معاني أخرى:

فقد كان الكلب في زمن النبي ﷺ جزءًا من حياة الناس اليومية، وشريكًا لهم في بيئتهم، يتردد على أماكن عيشهم بكل بساطة.. وكان الناس يزوِّدون هذه الكلاب المترددة عليهم بما تحتاجه من الماء، وإلا لما كانت هناك أحاديث كثيرة تتعلق بموضوع: ماذا تفعل إن شرب الكلب من إنائك؟!

وهناك موضوع آخر يخص النظافة ويرتبط بالكلاب، وهو سؤال الطهارة.. وقواعد الطهارة في الإسلام تتصل بشكل رئيسي بالصلاة.. وتقتضي هذه القواعد أن يكون جسد المسلم وملابسه ومكان صلاته كلها طاهرة.

وهكذا فإن الجسد والملابس ومكان الصلاة يجب أن تُغسل وتُطهَّر إن تعرضت لشيء من النجاسات أو الأشياء التي تعتبر غير طاهرة.

وقد اختلف العلماء حول الأشياء التي تعتبر نجسًا أو غير طاهرة، لكنهم اتفقوا جميعًا على أن الدم والبول والصديد والبراز أشياء غير طاهرة، ويجب تطهير الجسد والملابس ومكان الصلاة منها قبل أداء الصلاة.

وبعض العلماء خاصةً في المذهبين الحنبلي والشافعي يرون أن الكلاب نجس (غير طاهرة)؛ ولهذا فلمس الكلب أو التعرض لِلعْقه (أو لُعابه) أمر يستوجب غسل هذا الجزء الذي تعرض للمس قبل الصلاة.

من ناحية أخرى، نجد علماء المذهب المالكي لا يعتبرون الكلاب نجسًا.. أما علماء المذهب الحنفي بشكل عام فيعتبرون أن لعابه فقط هو النجس، وبذلك فما يتعرض للعاب الكلب من الجسم أو الملابس يستوجب الغُسل والتطهر قبل الصلاة.

إن أكثر ما ينساه الناس عند حديثهم عن الكلاب أن هناك العديد من الأشياء التي تم اعتبارها نجسة وتتطلب الغُسل أو التطهر منها جيدًا قبل الصلاة.

فحتى عند أولئك العلماء الذين يرَوْن أن الكلب نجس، فهناك العديد من النجاسات الأخرى التي تتطلب التطهر، وكل ما هو مطلوب ببساطة الغُسل!

فالجزارون مثلاً يصيب الدم ملابسهم، وربما أجسامهم، بشكل دائم، ويجب عليهم أن يتطهروا من ذلك قبل الدخول في الصلاة.

والبول الآدمي غير طاهر قطعًا؛ حيث نجد العسقلاني في تعليقه على الحديث السابق المتصل بأن الكلاب كانت تدخل المسجد يقول إن جمعًا

من العلماء يقولون إن أبـوال الحيوانـات كلها طاهـرة إلا الآدمي.. وعلى ذلك، فما يصيبه البول الآدمي، خاصة الجسم أو الملابس أو مكان الصلاة، يجب أن يطهر.

دم الإنسان وبوله وبرازه من النجاسات المؤكدة قطعًا، لكنَّ ذلك ليس معناه أن يحتقر الناس بعضهم بعضًا أو يجتنب بعضهم بعضًا.

والواقع أن أكثر الناس تعاملاً واتصالاً مع تلك النجاسات يوميًّا، مثل أطباء الطوارئ وغرف العناية المركزة، هم من بين أهم أفراد المجتمع اعتبارًا واحترامًا.

والدرس المستفاد والمهم هنا هو أن النجاسات أمر معتاد في حياتنا اليومية، والكلب واحد منها فقط.

• الكلـب فـي المـنزل:

لا يفهم كثير من الناس القواعد الشرعية التي تحدد شروط الاحتفاظ بكلب في البيت، وهناك روايات كثيرة وردت عن حديث للنبي ﷺ يحدد ذلك الأمر، يقول فيه: «من اقتنى كلبًا لا يغني عنه زرعًا ولا ضرعًا نقص من عمله كل يوم قيراط» [البخاري ٣٠٧٨، أو قيراطان كما في الحديث رقم ٣٠٥٩ من البخاري].

وتتضمن شروح تلك الأحاديث عدة مناقشات عن تلك الشروط، وأسبابها.. ويمكننا أن نستخلص من تلك المناقشات الأسباب التي تجيز اقتناء الكلب شرعًا؛ فذلك لا يكون إلا لأغراض خاصة حددتها تلك الأحاديث، وهي أن اقتناءه إما أن يكون للحراسة وإما للماشية وإما للصيد وإما للزرع.

ونعلم جميعًا، من خلال هذه الأحاديث الكثيرة التي سبق ذكرها، اهتمام النبي ﷺ بالرحمة وحسن معاملة ورعاية الحيوان الذي نحن مسئولون عنه أمام الله.

وتلك الأحاديث التي تبين شروط اقتناء الكلاب إنما تتطلب ممن يريد اقتناءها أن يكون له غرض نافع طيب من وراء ذلك.

وفي زمن النبي ﷺ كانت أشهر الأغراض التي تُقتنَى من أجلها الكلاب: الحراسة ورعاية المواشي والصيد والمساعدة في حماية الزرع من الطيور والوحوش والسرقة.. ومن الطبيعي أن تكون هذه الأغراض هي ما تحدده الأحاديث كشروط لاقتناء الكلاب.

والإمام الشوكاني في كتابه «نيل الأوطار» يعلق على الحديث فيقول: «يدخل في معنى الصيد، وغيره مما ذكر، اتخاذها لجلب المنافع ودفع المضار قياسًا مع كراهة اتخاذها لغير حاجة».

[نيل الأوطار، التعليق على الحديث رقم ٣٦٠٨].

وتتضمن تلك الشروط الشرعية من المتطلبات أن تتم حماية الكلاب من سوء المعاملة أو الاستخدام غير المناسب. فطبقًا للقواعد التي نفهمها من الحديث فإننا لا نستطيع الاحتفاظ بكلب من نوع نادر وغالي الثمن فقط لمجرد التفاخر به أمام الأصدقاء!

والكلاب كائنات اجتماعية نشيطة؛ ولهذا فحبسها في أماكن مغلقة يعتبر قسوة لا تصحُّ شرعًا.. ويجب أن تكون هناك منفعة، أو غرض من الاحتفاظ بالكلب، وإلا فإنك تعامل مخلوقًا حيًّا وكأنه قطعة ديكور تزين بها منزلك، دون وضع احتياجاته الخاصة في الاعتبار.. إن

الكلاب تحتاج تدريباً ورياضة، وكثيرٌ منها يحتاج إلى مهام يقوم بها وواجبات يؤديها، وإلا فهي تملُّ وتتعرض لأنواع من الاكتئاب قد تدفعها إلى سلوكيات غريبة أو عنيفة.

وكثيرون يفهمون نص الحديث القائل «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا تماثيل» فهمًا متعمقًا يعممونه بشكل لم يفهمه به الفقهاء وعلماء الحديث الذين شرحوه.

ولهذا الحديث رواية أخرى وقصة تذكرها كتب الصحيح، ويرويها الإمام مسلم في صحيحه (في الجزء ١٤- كتاب اللباس، باب تحريم تصوير شكل الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا كلب) عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت:

«واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأتِه، وفي يده عصا فألقاها من يده، وقال: ما يخلف الله وعده، ولا رسله، ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال: يا عائشة، متى دخل هذا الكلب ههنا؟ فقالت: والله ما دريت! فأمر به فأخرج، فجاء جبريل، فقال رسول الله ﷺ: واعدتني فجلست لك فلم تأت، فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة».

وفي تعليقه على هذا الحديث، يشير الشوكاني صاحب «نيل الأوطار» إلى تعدد الآراء في المراد من الملائكة؛ فهناك من يرى أنهم «الملائكة السياحون غير الحفظة وملائكة الموت، ويضيف أن هناك قولًا بأنهم الملائكة الذين ينزلون بالبركة والرحمة، وأما الحفظة فلا يفارقون».

إن الإشارة إلى تلك الخلافات لا تعني بأية حال أننا نسعى إلى التشكيك في شيء، أو نسعى للاستخدام غير المناسب للشروح والتعليقات حول الأحاديث، لكننا نحترم النصوص الشرعية كما ينبغي لها من الاحترام والتقديس، وفي الوقت نفسه نحاول إضاءة مختلف الجوانب التي يعطيها لنا ذلك النص، من خلال ما قدمه لنا الفقهاء والعلماء الذين شرحوا تلك النصوص.

• القطة.. الرفيق الدائم للإنسان:

للقطة حالة خاصة في الشرع والتاريخ الإسلاميَّيْن..

وأبو هريرة، الصحابي الجليل، وأحد أشهر رواة الحديث النبوي، سماه النبي ﷺ بهذا الاسم؛ لأنه كان يحمل يومًا هِرَّةً (وهي القطة الصغيرة) في كُمِّه، فرآه الرسول ﷺ فسأله ما هذه؟ فأجابه: هِرَّةٌ، فقال له: يا «أبا هريرة» فصار ذلك اسمًا له اشتُهر به.

وهناك حديث مشهور تذكره كتب السنة، كلها تقريبًا، يبين لنا كيف أن للقطط قبولاً واسعًا؛ من حيث طهارتها ونظافتها. فتروي كبشة بنت كعب بن مالك، وكانت زوجة لأبي قتادة رضي الله عنهم جميعًا «أن أبا قتادة دخل فسكبت له وضوءًا، فجاءت هرة فشربت منه، فأصغى (=قرَّب) لها الإناء حتى شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا ابنة أخي؟ فقلت: نعم، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إنها ليست بنَجَس، إنها من الطوَّافين عليكم والطوَّافات». [سنن أبي داود ج١ ص١٩- سنن النسائي ج١ ص٧٦ سنن الدارقطني ج١ ص٧٠].

كما أن النبي ﷺ نفسه كان يستخدم الماء للوضوء بعد أن تشرب منه القطة، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يصغي إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضَّأ بفضلها». [الدارقطني ج١ ص ٧٠].

وقد وصل اعتبار القطة طاهرة ونظيفة إلى حد أن السيدة عائشة -رضي الله عنها- أكلت من نفس الطبق الذي أكلت منه القطة! «عن داود بن صالح بن دينار التمَّار، عن أمه، أن مولاتها أرسلتها بهريسة إلى عائشة رضي الله عنها فوجدتها تصلي، فأشارت إلى أن ضعيها، فجاءت هرة فأكلت منها، فلما انصرفت أكلت من حيث أكلت الهرة، فقالت إن رسول الله ﷺ قال إنها ليست بنجس، إنها من الطوَّافين عليكم، وقد رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ بفضلها» [سنن أبي داود ج١ ص٢٠].

ويمكننا أن نلمس كيف أن إيذاء القطط له عواقب وخيمة، في الحديث السابق عن المرأة التي أُدخلت النار في قطة حبستها، فلا هي قامت برعايتها، ولا هي تركتها تسعى على رزقها في الأرض لتجد طعامها الذي تقوم به حياتها.

وفي حديث يرويه زيد بن أسلم أن ميمونة (وقيل اسمها أم الفضل) «أغلقت بابها على هرة بمكة وصغيرين لها، وخرجت إلى منى وعرفة، فوجدتهن قد متْنَ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأمرها أن تعتق عن كل واحدة منهن رقبة». [مصنف عبدالرزاق ج٤ ص٤٠٩]؛ ففي هذه الحالة تسببت تلك الصحابية، بطريق الخطأ، في موت القطط الثلاث.. ولأنها لم تكن تقصد حبسها لتموت، فقد كانت كفَّارتها أن تعتق ثلاث رقاب، واحدة عن كل قطة، وذلك أخف بكثير من الحكم الذي سبق أن علمناه عن المرأة التي تعمَّدت حبس القطة بلا طعام أو شراب، وتركتها تموت.

• متى يحلُّ قتل الحيوان؟

قد يكون من الضروري أن تقتل حيوانًا، مثل أن يكون ذلك بغرض الطعام، وسنناقش ذبح الحيوانات للطعام فيما بعد، لكن هناك حالات من القتل كانت مصدرًا لمناقشات عديدة:

أ- حالات قتل الحيوانات لغير غرض الطعام:

حينما تصدم سيارة حمارًا فيصاب إصابات بالغة، يسقط إثرها في الشارع، ويعاني ألمًا شديدًا، ويبدو أنه لن يشفى من تلك الإصابات، بل يرجح أنه سيقضي ساعات يتعذب في احتضاره قبل أن ينفق.. وهنا يكون السؤال: ما الشيء الذي يجب علينا أن نفعله في هذه الحالة؟

إن شخصًا متمرسًا في صحة الحيوانات، طبيبًا بيطريًّا مثلًا، أو لديه خبرة طبية، مثل طبيب أو صيدلي، يجب أن يعطي الرأي السديد في ما يجب فعله مع ذلك الحيوان المسكين، وهل يمكن شفاؤه ليحيا بشكل طبيعي، أم أن هذا أصبح في حكم المستحيل طبيًّا.

فالحمار في هذه الحالة يجب أن يُحقن بدواء يجعله يموت بسرعة موتًا مريحًا دون أية معاناة.

والمبدأ الذي ينص على أن أي قتل أو ذبح يجب أن يؤخذ فيه الرحمة هو حديث ترويه كل كتب الحديث المعروفة:

يقول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح». [صحيح مسلم ٣٦١٥ صحيح الترمذي ١٣٢٩ صحيح النسائي ٤٣٢٩ / ٤٣٣٥ / ٤٣٣٨ سنن أبي داود ٢٤٣٢ سنن ابن ماجه ٣١٦١ مسند أحمد ١٦٤٩٠ / ١٦٤٩٤ / ١٦٥٠٦ / ١٦٥١٦ سنن الدارمي ١٨٨٨].

ويرى الإمام النووي أن ذلك الحديث قاعدة تنطبق على كل قتلة شرعية مقبولة.. يقول عن الحديث إنه: «عام في كل قتيل من كل الذبائح، والقتل قصاصًا، وفي حد، ونحو ذلك».

إن الرسالة البالغة الوضوح لهذا الحديث المهم هي: إن كون الحيوان (أو الإنسان) معرضًا حقيقة وفعليًّا للقتل، طبقًا لأسباب شرعية، فهذا لا يعني أن نعامل ذلك الحيوان أو هذا الإنسان بطريقة سيئة، حتى ساعة موته، ولا يعني أيضًا أن أية طريقة في القتل يمكن استخدامها بسهولة؛ مثل أن يتم القتل بقسوة أو عنف أو بلا رحمة، الحديث السابق ينص بقوة ووضوح على أن القتل أو الذبح يجب أن يكون برفق ورحمة بكل ما في ذلك من استطاعة.

ويعلق الإمام الترمذي على الحديث موضحًا أن المقصود بالإحسان في الحديث هو: «اختيار أسهل الطرق وأقلها ألمًا».

[تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي حديث ١٣٢٩].

إن القوة الشرعية لهذا الحديث مؤثرة وواسعة الأثر إلى درجة أن الإمام النووي يقول: «وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة المانعة لقواعد الإسلام» [صحيح مسلم بشرح النووي حديث ٣٦١٥].

ونضرب مثالاً آخر لحالات ضرورة قتل الحيوان، وهي: حينما يكون هناك كلب شرس لا يمكن استئناسه ويشكل خطرًا على المجتمع، وربما يبدو شرسًا وخطرًا، في بعض الأحيان، لكنه – فقط – خائف، ويحتاج شخصًا ذا خبرة ليمسكه ويسلمه إلى ملجأ للحيوانات؛ حيث هناك تتم رعايته وترويضه واستئناسه، وقد يأخذه شخص ما فيما بعد ليستفيد منه ويعتني به.

في أحيان أخرى، يبدو الكلب عنيفًا جدًّا، وربما شديد الشراسة، وهذا الموقف يحتاج شخصًا له خبرة في رعاية الحيوان ليقرر لنا ما المناسب لنفعله مع الكلب.

وهذا درس مهم جدًّا؛ فأنت إذا لم تكن ذا خبرة، أو تدربت على رعاية الحيوان فأنت -بالطبع- لا تملك الحق ولا الأهلية لإعطاء القرار المناسب فيما يجب فعله مع الكلب.

أما إذا هاجمك الكلب وعليك الدفاع عن نفسك في لحظة مهاجمته، فحينئذ لك الحق - بالتأكيد - في حماية نفسك بالقوة التي تناسب درجة تهديد الكلب لك.

لكن إن كنت تظن - فقط - أن الكلب ربما يكون خطرًا فربما لا يمكنك تحمل مسئولية اتخاذ القرار الأفضل؛ لأنك في هذا الموقف ربما اتخذت قرارًا خاطئًا، أو غير ضروري، يترتب عليه إنهاء حياة الكلب، وإزهاق روح بريئة، لمجرد ظنك بأنه خطر، وهذا ذنب مؤكد ستكون مسئولاً عنه.. والأصعب منه أنك ربما لا تعرف في هذه الحالة التوصل إلى الطريقة التي تتماشى مع قاعدة إحسان القتل، فترتكب ذنبًا أشد بجعله -الكلب- يتعذب أثناء موته، وهذا ما لا يقبله الشرع.

لكن، إذا قرر شخص ذو خبرة في رعاية الحيوانات أن ذلك الكلب من الضروري أن يُقتل، ففي هذا الوقت يصبح القتل واجب الحدوث، لكن بأرحم طريقة ممكنة؛ لأن طرق القتل التي تسبب ألمًا غير ضروري أو معاناةً زائدة للحيوان - ببساطة - ليست إسلامية، وتنتهك -بوضوح- قاعدة: (فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة).

وفي حالة الحمار الذي سبق وضربناه مثلاً بأن صدمته سيارة

وأصابته إصابات بالغة جعلته معرضًا للموت في الشارع؛ فنحن هنا أمام حيوان محدد يجب اتخاذ قرار موت رحيم بشأنه.

لكن لدى بعض الناس فكرة خاطئة وهي أنه إذا كان هناك كلب خطر في المنطقة أو الحي الذي يعيشون فيه، ففي تلك الحالة يكون القرار الأفضل – من وجهة نظرهم طبعًا – هو أن يقتلوا كل كلب في منطقتهم؛ كنوع من الوقاية أو الاحتراس، وهذا – ببساطة ووضوح – أمر لا يحله الإسلام.

وهناك موقف شبيه بهذا، ويتصل بذاك الموقف؛ حيث تروي معظم كتب الأحاديث الصحيحة: «أن نملة قرصت نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح» [صحيح مسلم٤١٥٧ – فتح الباري – ج ١٢ – ص ١٢١ – حديث ٣٠١٩].

ومعنى هذا الحديث واضح في الوجه الذي نقصده؛ فالنبي الذي يشير إليه الحديث لم يكن يحقُّ له أن ينتقم من جماعة كاملة من النمل، فقط لأن واحدة من تلك الجماعة قرصته، أو ألحقت به أذًى، ورغم أن هذا الأمر لاينص عليه صراحة في الحديث إلا أنه يبدو– ضمنيًّا – أنه كان باستطاعته معاقبة تلك النملة وحدها، إن كان من الممكن تحديدها، ومعرفتها على وجه الخصوص؛ لأن العقاب الجماعي ممنوع، حتى لو لشخص له اعتبار خاص، مثل نبي!

وتعليق الإمام النووي على الحديث يؤكد ذلك المعنى، بقوله: «قال العلماء: وهذا الحديث محمول على أن شرع ذلك النبي كان فيه جواز قتل النمل، وجواز الإحراق بالنار، ولم يُعتَبْ عليه في أصل القتل والإحراق بل في الزيادة على نملة واحدة».

ب- الذبـــــح:

نعلم جميعًا أن هناك قواعد محددة يجب اتِّباعها عندما يتم ذبح الحيوان؛ حتى يعتبر لحمه حلالاً شرعًا.

و«الحلال» ليس – فقط – كلمةً تصف اللحم الذي يستطيع المسلم أن يأكله، بل تحمل معها تفاصيل محددة، وكيفيات خاصة للذبح، وُضِعت ليكون الذبح رحيمًا – بقدر الإمكان – ليحترم الحيوان، وصحيًّا – بقدر الإمكان – ليحمي صحة الإنسان الذي يستهلك اللحم.. وبناء على ذلك، فإن الذبح يجب أن يتم طبقًا للقواعد الشرعية بالتزام تام بها؛ لأسباب كثيرة مهمة.

وأنت إذا كنت تشتري ما تحتاجه من اللحم من جزار أو محل فربما تتساءل: لماذا أحتاج لمعرفة قواعد الذبح الشرعي مادام هناك شخص آخر سيتكفل هو بهذا الأمر؟

لكن، يجب على كل مسلم يأكل اللحم أن يكون متأكدًا أن ما يأكله من اللحم حلال؛ ولذلك يجب علينا جميعًا الانتباه إلى قواعد الذبح. بالإضافة إلى ذلك، فإن كثيرًا من الناس يتولُّون بأنفسهم –في عيد الأضحى مثلاً– ذبح أضحياتهم الخاصة، وهذا يسبب مشكلات عديدة؛ لأن كثيرًا منهم ليسوا على دراية كاملة بالقواعد الشرعية الصحيحة، أو ليس لديهم بمنازلهم الإمكانات أو الشروط التي تتيح لهم القدرة على اتِّباع القواعد؛ لذلك أصبح أكثر الناس يميلون إلى أن يعتمدوا على شخص ذي خبرة ومهارة – مثل الجزار – ليقوم بالذبح.

والذبح يجب أن يتم بطريقة تقلل من خوف الحيوان وآلامه طبقًا للقاعدة التي يجب أن نحرص على تذكُّرها ونذكر الآخرين

بها، دائمًا، «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح**».

فأولاً: نقل الحيوان أو أخذه يجب أن يتم برفق ورحمة.. يروي ابن سيرين أن عمر– رضي الله عنه – رأى رجلاً يسوق شاة له ليذبحها، سوقًا عنيفًا، فضربه بالدِّرَّة، ثم قال له: «سُقْها إلى الموت سوقًا جميلاً. لا أمّ لك» [بدائع الصنائع للكاساني ج٥ ص٦٠].

وهذا الموقف يبين إلى أي حد كان فهم عمر بن الخطاب للرحمة والرفق بالحيوان راقيًا، يمثل حقيقة شرع الإسلام، ويتطابق مع نصوصه.. فحتى حينما نسوق الحيوان أو ندفعه للذبح يجب أن يكون ذلك بالرفق والحيلة الرحيمة، لا بالدَّفع أو الضرب أو القسوة أو أي أسلوب يسيء معاملته.

وهناك قواعد تحكم ما يُفعل في مكان الذبح، وعملية الذبح ذاتها، فهناك حديث يعلمه معظم المسلمين ويرويه عكرمة عن النبي ﷺ حينما رأى رجلاً أنام الشاة على جنبها بينما هو يُحِدُّ السكين لها، وهي تلاحظه، فقال ﷺ: «أوَدِدْتَ أن تُميتها موْتاتٍ؟ (=هل أحببت أن تقتلها مرات كثيرة لا قتلاً واحدًا)، ألا حدَدْتَ الشفرة قبل أن تضجِعها» [رواه الطبراني وقال حديث صحيح على شرط الشيخيْن، وذكره المنذري والسرخسي في المبسوط ج١١ص٢٢٦ والكاساني الحنفي في بدائع الصنائع ج٥ ص٦٠].

ويروي الكاساني الحنفي في البدائع عن سيدنا عمر رضي الله عنه «أنه رأى رجلاً وقد أضجع شاة ووضع رجله على صفيحة وجهها وهو يحد الشفرة، فضربه بالدِّرة فهرب الرجل وشردت الشاة».. ولأن البهيمة – كما يعلق الكاساني – تعرف الآلة الجارحة كما تعرف المهالك

فتتحرز عنها، فإذا أحدّ الشفرة وقد أضجعها يزداد ألمها، وهذا كله لا تحرم به الذبيحة؛ لأن النهي عن ذلك ليس لمعنى في المنهي بل لما يلحق الحيوان من زيادة ألم لا حاجة إليه.

وهناك حديث آخر: «عن سالم بن عبد اللَّه عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ أمر بِحدِّ الشفار وأن تُوَارَى عن البهائم وإذا ذبح أحدكم فَلْيُجْهِزْ». [مسند الإمام أحمد ٥٥٩٨].

ويروي عبدالرزاق الصنعاني في مصنَّفه، عن صفوان بن سالم، قال: «كان عمر بن الخطاب ينهى أن تذبح الشاة عند الشاة»؛ أي أمامها.

وقد منع عمر هذا الفعل لما قد يسببه ذلك من ذعر شديد وألم وهياج للثانية؛ ولأنه أكثر سوءًا وحرمةً من حال من يحد السكين أمام شاة سيذبحها.

وروي عن عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – أنه قال: «لا تجروا العجماء إلى مذبحها برِجْلِها، وأحدّوا الشفرة، وأسرعوا الممر على الأوداج، ولا تحفوا» [السرخسي، المبسوط ج١١ ص٢٢٦]، وهو يؤكد ضرورة عدم جر البهيمة من رجلها للذبح، وأن تذبح بسكين حادة ليسهل الإسراع في الذبح حتى لا يطول تألمها، مع عدم المبالغة في القطع: فلا يصل إلى النخاع، ولا يقطع الرقبة. كل هذا إنما هو رحمة بالغة يبتغيها ديننا الحنيف للحيوان؛ حتى لا يتألم كثيرًا.

ج- القتـــل الخاطـــئ:

قتل حيوان لغير غرض الطعام، وخارج حدود الضرورة، أمر ممنوع شرعًا وتؤكده أحاديث كثيرة:

فعبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من إنسان يقتل عصفورًا، فما فوقها، بغير حقِّها، إلا سأله الله عنها يومَ القيامة»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «حقها أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويطرحها».

والحديث يبين أن قتل أصغر كائن – مثل العصفور أو أي مخلوق يصغُره أو يكبُره– لمجرد العبث واللهو، هو أمر محرَّم شرعًا.

ويروي النسائي وابن حبَّان والإمام أحمد وكتب صحاح أخرى عن الشريد بن سويد الثقفي –رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل عصفورًا عبثًا، عجَّ (= صرخ العصفور واحتجَّ) إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب إن فلانًا قتلني عبَثًا، ولم يقتلني منفعةً»– [النسائي ٤٣٧٠ – مسند أحمد ١٨٦٥١ – سنن أبي داود ٤٥٦١].

وهذا الحديث يشير إلى أن القتل لا يمكن التسامح فيه، أو العفو عنه، أبدًا، إن كان خارج حدود الذبح الشرعي أو القتل المبرر شرعًا. وإذا ظن أحد أن باستطاعته أن يقتل للمتعة فإن الله سيحاسبه على ذلك، وقتل أي حيوان، صغر حجمه أو كبر، دون سبب مقبول شرعًا – أمر يحرمه الإسلام، ويعاقب مرتكبه يوم القيامة.

ويروي عن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال: دخلت مع جدِّي أنس ابن مالك دار الحكم بن أيُّوب فإذا قومٌ قد نصبوا دجاجةً يرمونها قال: فقال أنس: نهى رسول اللّه ﷺ أن تُصبرَ البهائم.. ويشرح الإمام النووي معنى «أن تُصبرَ البهائم» بقوله: «أن تحبس وهي حية لتقتل بالرمي أو نحوه».

ويضيف النووي أن: «هذا النَّهي للتحريم»، ويشرح سبب ذلك قائلاً: لأن هذا «تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه، وتضييع لماليَّته (=ثمنه)، وتفويت لذكاته إن كان مذَكّى (= إضاعة لذبحه إن كان مما يُذبح ويؤكل) ولمنفعته إن لم يكن مذكى» [صحيح مسلم ٣٦١٦].

أما عبد الله بن عمر– رضي الله عنهما –: فيروى عنه أنه مرَّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم (= السهم الخطأ يذهب لمالك الدجاجة) فلما رأوا ابن عمر تفرقوا. فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا!! إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا (= هدفًا للرماية)» [صحيح مسلم ٣٦١٩].

ولاحظ – بعناية – أنه في الوقت الذي تهتم فيه كثير من الشروح بتحريم ذلك الفعل البشع (المتمثل في قتل الحيوان من خلال وضعه هدفًا للتصويب بوسائل قاتلة أوحتى –فقط– مؤلمة)، فإن الفهم الأساسي يهتم بالتركيز على حالة (الألم والمعاناة) التي يتسبب ذلك الفعل فيها للحيوان، هذا هو الاهتمام المبدئي للحديث: فالخسارة المالية ليست أهم العوامل؛ لأنه مازال بإمكان الإنسان أن يجد حيوانًا آخر ليذبحه، أو لينجز به أعماله، لكن في حالة قتل حيوان بأسلوب لا يتفق مع الشرع فإن من فعل ذلك لن يمكنه أبدًا أن يوقف الألم والمعاناة اللذين سببهما للحيوان، أو يلغيهما، وسيظل يحمل ذنب ذلك الفعل الشنيع معه إلى أن يلقى الله يوم القيامة فيحاسبه عليه.

إن قتل الحيوانات (خارج حدود الذبح الشرعي السليم، أو بسبب الضرورة أو الاحتياج، كما سبق ووضَّحنا) ليس متعة ولا لعبة رياضية، إنما خطأ، وخطيئة، ووحشية، وذنب سيسألنا عنه الله عز وجل.

خاتمة:

لقد بنى الإسلام في مبادئ الرفق والرحمة والعطف والعدل والتي تعتبر من الأمور الجيدة. هذه المبادئ التي تنتشر من خلال نصوص الدين «القرآن والسنة النبوية» وأيضًا من خلال ما جاء في التاريخ الإسلامي.

يأمرنا الإسلام بالعطف والرفق تجاه الحيوانات في كل الأمور وأتمنى بشدة أن تصبح هذه المبادئ والقواعد جزءًا من سلوكياتنا اليومية.

المؤلفـــة

الأستاذة الدكتورة/ كريستين ستيلت

- إجازة القانون الأمريكي من جامعة تكساس.
- درجة الدكتوراه في تاريخ القانون الإسلامي من جامعة هارفارد.
- العمل في المحاماة في أحد أشهر مكاتب المحاماة الدولية «كايري جوتليب – شتاين وهاموليتون».
- تعمل حالياً في وظيفة أستاذ مساعد في مادة القانون والتاريخ في جامعة نورث ويسترن في شيكاغو.
- في بداية عام ٢٠٠١ حضرت إلى مصر وشاركت في مجال الرفق بالحيوان عندما التحقت كعضو في الجمعية المصرية لحماية الحيوان عندما كانت الجمعية تحت التأسيس – وهي الآن نائب رئيس مجلس إدارة جمعية الرحمة بالحيوان.
- شاركت في وضع مشروع قانون حماية الحيوان في أمريكا والذي يساعد محبي الحيوانات في الوصول إلى أهداف عدم قتل الحيوانات.